الشيخ الدكتور محمود باي رحمه الله كما عرفته[*]

بقلم: أ.د. مسعود فلوسي

عرفتُ الأخ العزيز الشيخ محمود باي رحمه الله منذ التحاقه بكلية العلوم الاجتماعية والعلوم الإسلامية في جامعة باتنة إثر نجاحه في مسابقة الدخول إلى السنة التمهيدية للماجستير التي نظمتها الكلية في بداية السنة الجامعية 2003-2004، حيث التحق بمقعد الدراسة من أول يوم بكل هِمَّة وطُمُوح، وحيوية ونشاط، وقد دَرَّسْتُه وزملاءَه عدة مقاييس، ومنها منهجية البحث العلمي وتخريج الفروع على الأصول، ولاحظت أنه كان مواظبا على الحضور ولا يَغيبُ عن أيِّ دَرْس أو مُحاضَرَة، كما كان حريصا على تسجيل كل ما يسمع من معلومات، ولا يتردد في الاستفسار عن أي معنى يلتبس عليه أو فكرة لم تتضح له كما ينبغي، وكان كذلك يتدخل بالمناقشة والحوار في المسائل المشكلة التي تختلف فيها الآراء والأفهام، كل ذلك بأدب جَمٍّ وخُلُق عال، مُستعمِلا في كلامه اللغة العربية الفصيحة التي ظل يحرص على التكلم بها طيلة الفترة التي عرفته خلالها، ولم أسمعه يستعمل الألفاظ الدارجة ولو مرة واحدة.

كما لاحظت أن الشيخ محمود كان يتعامل مع أساتذته، الذين يَقِلُّ أكثرُهم عنه سِنًّا، بخُلُق الطالب مع مشايخه، بَاذِلا لهم الاحترام، مُبْدِيا لهم التقدير، مُظْهِرا لهم الحَفَاوَةَ والإكرام، وهو خُلُقٌ كريم كثيرا ما رأينا بعض صغار الطلبة الذين لا علم لهم ولا فضل يفتقدونه في تعاملهم مع أساتذتهم الذين علموهم وأفادوهم.

ومما عرفتُه من الشيخ محمود في تلك المرحلة، أنه توقف عن التدريس في الثانوية في إطار نظام الاستيداع، مختارا التفرغ لطلب العلم والبحث العلمي، مُسْتَهينا في ذلك بكل ما قد يُوَاجهُه من

---

[*] ـ مقال منشور ضمن كتاب (الشيخ الدكتور محمود باي في ذكرى وفاته)، إشراف وتحرير وتقديم: إبراهيم رحماني، دار سامي، الوادي، ط1، جوان 2021م، الصفحات: 13-17..

صعوبات مادية أو معنوية، خاصة وأنه كان ربَّ أسرة وأبا لأبناء. ولو شاء لفعل كما فعل كثيرون غيرُه ممن كانوا يَدْرُسُون عن طريق الانتساب ولا يحضرون الدروس والمحاضرات مكتفين بالحصول على محاضرات الأساتذة مطبوعة وقراءتها لأجل الامتحان فيها، دون أن يكون لهم تواصل مع هؤلاء الأساتذة أو استفادة عملية مباشرة منهم.

كان ذلك حال الشيخ محمود خلال السنة التمهيدية للماجستير التي قضاها معنا في جامعة باتنة. وبعد نهاية الدراسة النظرية، وحلول موعد اختيار الموضوعات التي سَيُعِدُّ فيها الطلبة رسائلهم، جاءني الشيخ محمود طالبا مني أن أتولى الإشراف على عمله في البحث الذي سينجزه للحصول على الماجستير، وما كان لي أن أرفض طلبا كهذا من رجل ذي هِمَّةٍ ونشاط وشَغَفٍ بالعلم والمعرفة ونُضْجٍ في الفهم والتفكير. تبادلنا الرأي في الموضوع الذي سيبحثه، وبعد أن قلبنا النظر في أكثر من موضوع، اتفقنا على أن يبحث موضوع (مقصد حفظ العقل عند الإمام محمد الطاهر بن عاشور). وعلى الرغم من أني لاحظت له أن البحثَ واسعٌ ومادتَه متفرقةٌ في كتب الإمام ابن عاشور ومنها تفسيرُه الضخم (التحرير والتنوير)، إلا أن الشيخ محمود استسهل الصعب، وقرر أن يخوض غِمارَ البحث، وكان فعلا في مستوى التحدي، حيث جمع مادته العلمية المشتتة والمتفرقة ونَظَمَهَا وحَرَّرَها وصَاغَها فصولا متناسقة حتى اكتملت في رسالة علمية لطيفة الحجم غزيرة العلم، وهي الرسالة التي تمت مناقشتها وإجازتها يوم الأحد 29 جمادى الأولى 1427هـ، الموافق 25 جوان 2006م، ونالت درجة الماجستير في العلوم الإسلامية، تخصص: الفقه والأصول، بتقدير مشرف جدا.

لم يَطُلِ العهدُ بهذه المناقشة، حيث لم يلبثِ الشيخُ محمود أن عاد إلى مدينة باتنة مرة أخرى، ليتصل بي ويطلب مني أن أواصل الإشراف عليه في رسالة الدكتوراه، حيث عرض عليَّ موضوعا لا أذكر عنوانه الآن، لكن بدا لي حينئذ أنه غيرُ ذي فائدة ولا يُسْهِمُ في التكوين العلمي للباحث، فأشرت عليه بصرف النظر عنه، وفي المقابل نصحته ببحث موضوع آخرَ رأيتُه أكثرَ أهمية؛ من جهةِ أنه يجمعُ بين الفقه والأصول، وكذلك من جهة أنه يُلزمُ الباحثَ بقراءة كتاب كامل من كتب التراث الفقهي المالكي، أيْ قراءة الفقه كله من خلال كتاب واحد ذي أجزاء متعددة، وكان ذلك الكتاب هو (الذخيرة) للإمام القرافي، لكني مع ذلك لم أخْفِ على الأخ محمود ما ينطوي عليه الموضوع المُشارُ به من صعوبة، وهو موضوع (القواعد الأصولية وتطبيقاتها الفقهية من خلال كتاب الذخيرة للإمام القرافي)، لكن هذه الصعوبة تَهُونُ إذا ما قورنت إلى الفوائد الجمة التي سيجنيها الباحث من دراسة هذا الموضوع. ومرة أخرى كان الشيخ محمود في مستوى التحدِّي، حيث قبل أن يقوم بالمهمة وأن يدرس الموضوع رغم ما يكتنفه من صعوبات وما يطرحه من تحديات.

ولما عُرِضَ المشروع على الهيئات العلمية في الكلية، لم تتردد في قبوله واعتماده وتسجيله بصفة رسمية، وبدأ الشيخ محمود قراءة مجلدات كتاب (الذخيرة) بعد أن حصل على نسخة منه، وظل يجمع منها المادة العلمية، إضافة إلى المعلومات التكميلية التي كان يجمعها من مصادر ومراجع أخرى، وكان يتصل بي مرة بعد مرة ليطلعني على ما وصل إليه، ويستشيرني في بعض ما يَعِنُّ له من قضايا ويستنصحني في كيفية مواجهة بعض الصعوبات التي كانت تعترض طريقه.

كنت أطلع باستمرار على ما يكتبه من فصول ومباحث وأقرأها وأرجعها إليه بعد تصحيحها وتدقيقها، وهكذا حتى انتهى من تحرير فصول رسالته. وعندما جاءني بالنسخة النهائية من الرسالة، راجعتها وتأكدت من استكمالها للشروط العلمية والمنهجية، فأذنت له بطبعها وتقديمها للهيئات العلمية في الكلية، وتم توزيع الرسالة على لجنة المناقشة، وبعد أن رجعت التقارير كلها بصلاحية الرسالة، اجتمعت اللجنة وتمت المناقشة يوم الثلاثاء 28 رجب 1435هـ، الموافق 27 ماي 2014م، لينال الشيخ محمود درجة دكتوراه العلوم في العلوم الإسلامية، تخصص: الفقه والأصول، بتقدير مشرف جدا.

أتيح بعد ذلك للشيخ محمود أن يُوَظَّف في معهد العلوم الإسلامية بجامعة الوادي، وأن يصبح واحدا من أعضاء هيئة التدريس فيه، وأن يحظى الطلبة بالانتفاع مما علمه الله من علم وما آتاه من فَهْمْ، وأن يلمسوا عن قُرْب ما حَلَّاهُ به من أخلاق وشمائل، وكنت أتابع أخباره وأسأل عن أحواله، كما كنا نتواصل أحيانا عن طريق الهاتف، وخاصة في الأعياد والمناسبات.

وعندما زرت مدينة الوادي لمناقشة ملف تأهيل لأحد الزملاء يوم 25 أفريل الماضي، لقيت الشيخ محمود في رحاب معهد العلوم الإسلامية وجددنا العهد وتذاكرنا الأيام الطيبة، وعندما كنت بصدد المغادرة والعودة إلى مدينة باتنة جاءني بعلبة كبيرة مليئة بالتمر الطري اللذيذ، معتذرا - بخُلقه الجم وأدبه الفَذّ - بأنه لم يكن بوسعه أن يكرمني بأكثر من ذلك. وقد كان الأمل معقودا على لقاءات أخرى، لكن قَدَّرَ اللهُ عز وجل أن يكون ذلك آخرَ لقاء بيننا، حيث لم أحظ بلقائه عندما زرت الوادي للمرة الثانية في إطار مناقشة ملف تأهيل لزميل آخر يوم 17 ماي 2017. لأُفَاجَأ مساء يوم الأحد 23 رمضان 1438هـ، الموافق 18 جوان 2017م

بمكالمة هاتفية من الأخ العزيز الأستاذ الدكتور إبراهيم رحماني مدير معهد العلوم الإسلامية بجامعة الوادي يخبرني فيها بوفاة الشيخ محمود، ويَعْلَمُ الله عز وجل كم كان وَقْعُ الخبر على نفسي، لكن ماذا نملك أن نقول وتلك إرادة الله عز وجل النافذة وهذا قدره المحتوم.

لقد فقدنا بفقد الشيخ محمود باي أخا عزيزا، وزميلا كريما، فقدنا بفقده نموذجا للأخلاق العالية والشمائل الزكية، فقدنا رجلا زاهدا في الدنيا مقبلا على الله والدار الآخرة، فقدنا طرازا فريدا من الرجال في هذا الزمان الذي غلبت فيه الأنانية على النفوس واستولى حب الدنيا على القلوب، وقُدِّمَت فيه عبادةُ الهوى على عبادة الله عز وجل. هكذا عرفنا الشيخ محمود، وهذا ظننا فيه، ولا نزكي على الله أحدا.

إن القلب ليحزن، وإن العين لتدمع، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا: إنا لله وإنا إليه راجعون، وإنا على فراقك يا شيخ محمود لمحزونون، وإنا لنسأل الله عز وجل أن يجمعنا بك في مستقر رحمته يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.